الفصل السادس عشر

الجيش الآشوري

إنه وفي أثناء القرن الأخير أو ما يقارب القرن الأخير من عمر الإمبراطورية الآشورية كان هناك عدد قليل من الناس لم يتأثروا بتلك الإمبراطورية بصفة أو بأخرى وكانت النواحي التي تأثرت فيها الحياة اليّومية (سواء تأثيراً حسنا أم سيئاً) إنما هي القضايا الاقتصادية والإداريّة.

ولكن النقطة التي دخل الإنسان منها إلى حالة التماس المباشر مع دولة آشور بانيبال كانت غالباً هي الجيش الآشوري، وهذه هي أيضاً النقطة التي استطاع القارئ الغربي الحديث (إذا كان قد تعرَّف على التوراة) أن يواجه الآشوريين لأول مرَّة نظراً لأن السفر الثاني من كتاب الملوك (أشعيا) ٣٦-٣٧ يكرس سفرين (الـ ١٨والـ ١٩) لقضية حصار أورشليم وهناك نُتف من أسفار أخرى تكرِّس لهجوم الآشوريين على مملكة إسرائيل الشمالية.

استطاعت آشور تجييش الجيوش التي كان يبلغ تعدادها مئات الألوف من الرجال، ولكن أنشطة الآشوريين العسكرية لم تكُنْ متمثلة بالحملات الحربية على ذلك المقياس.

وقد تمت بعض العمليات العسكرية عن طريق قوى صغيرة أو عن طريق الحاميات التي كانت تسيطر على النقاط المفتاحيّة وكان تعداد هؤلاء الجنود بضعة دزينات فحسب.

ولكن ومهما كان حجم هذه القوى فقد كان استخدامها الفعال يعتمد على عاملين أساسيين وهما التنظيم والانضباط.

لم يكن جيش آشور العظيم عبارة عن قطيع من الفلاحين المتعطشين لسفك الدماء تدعمها قوة من الفرسان الرهيبين الذين لا هم لديهم سوى الغنائم، ولكن في الحقيقة كان الجيش منظمة معقدة تضم وحدات متخصصة من عدة أنواع،

obeikandl.com

وكان نواتها هي الجيش المرابط وكان هذا الجيش مكلَّفاً بعدّة مهام وواجبات على أسس دائمة.

أولاً: كان توفير الأمن الشخصي للملك الأمر الذي استدعى وجود الحرس الخاص الدائم.

وأيضاً: كان هناك الحاميات الدائمة المتواجدة في نقاط مفتاحية مختلفة في الإمبراطورية وهذه تستلزم تزويد هذه الحاميات بالرجال والعتاد بشكل دائم وعلى أسس من الأمد الطويل.

وهكذا فإنه لن يستطيع أحد سوى الرجال المحترفين أن يؤمنوا هذه الواجبات، ولهذا فقد كان بعض هذه الحاميات مسؤولاً بشكل مباشر أمام الملك وليس أمام الولاة المحليين، وقد بدا هذا واضحاً من التقارير التي كانت ترسل إلى الملك من قبل قواد هذه الوحدات.

إن إحدى هذه الوحدات من الجيش المرابط والتي نسمع عنها الشيء الكثير، كانت مجموعة من الجنود من أصول قبلية تدعى (الإينتو) ومن ناحية عرقية لم يكن هؤلاء من الآشوريين، بل كانوا مجموعة من الجنود من أصول قبلية آراميّة من جنوب آشور وهم قريبون من مدينة آشور.

ولقد كان هناك في يوم من الأيام مزعجون للسلطات الآشورية ولكن لقد تمّ إخضاعهم تماماً.

وعندما نسمع عنهم في المراسلات الملكية ابتداء من أواخر القرن الثامن فصاعداً نجد أنهم قد أصبحوا وحدةً متميّزةً يمكن الاعتماد عليها في أداء واجبات خاصة، ونجد مثلاً أنهم قد جُلبوا لإعادة النظام في منطقة لبنان عندما تمرّد أهل صيدا بسبب الضرائب وقتلوا أحد مُفتشي الضرائب.

هذا وإن قضية (الإينتو) تظهر أن الجيش الآشوري لم يكن مقتصراً على الآشوريين فقط، إذ وكما ذكرنا سابقاً لم يكن لدى الآشوريين أي تمييز عنصري وقد أدخلوا الشعوب التابعة لهم في جيوشهم واعتبروهم على قدم المساواة مع الآشوريين الأصليين، وكانت كل مجموعة عرقية تحتفظ بشخصيتها وهويّتها

openlibrary.com

بالنسبة لأغراض القتال وكانوا يؤلفون فوجاً أو وحدة صغرى ويحتفظون بأنواع أسلحتهم وأشكال ملابسهم المستعملة في مناطقهم الأصلية.

وهكذا نجد في لوحات النقوش النافرة صوراً لمجموعات من رماة السهام ورماة المقاليع والسيافين وفرق المشاة الخفيفة وفرق المشاه الثقيلة الذين يتميّزون بأحذيتهم الثقيلة وملابسهم وأغطية رؤوسهم فضلاً عن أسلحتهم، ولكن هؤلاء المحاربين كانوا بحاجة إلى الدعم التقني وتخبرنا الأفاريز والنصوص بوجود وحدات تقنية متخصصة.

وكان هناك عربات حربية تستخدم في ميدان المعركة مرافقة للجيش، وعربات لِنقل المعدات اللازمة التي كانت تشمل الطعام والخيام وقطع خاصة من المعدات مثل آلات الحصار والمنجنيقات، عندما تُصبح الطرق صعبة بالنسبة لمرور عربات النقل والعربات الحربيَّة وعندها تصبح الطرق مقفلة.

وكان فتح الطرق من وظيفة جنود الاستطلاع المجهزين بالفؤوس البرونزية والنحاسية، وفي بعض الأحيان كان الجيش يصادف نهراً لا يمكن الخوض فيه وعبوره وكان هذا يقتضي إنشاء أطواف أو جسور كانت تضعها جنود الاستطلاع، وكانت الأطواف من نوع الكيليك.

أما الجسور فكانت جسوراً من القوارب أي: الجسور المتشكلة من قوارب مصفوفة عبر مجرى النهر وتوضع فوقها الألواح الخشبية التي من الممكن أن تصبح ممرات للعربات الحربية.

وبعدها وعندما يصل الجيش الآشوري إلى إحدى المدن المراد حصارها عندها يستعان بجنود الاستطلاع مرة ثانية لوضع المنجانيق والسلالم وأعمال حفر الخنادق.

وكان هناك عدد من الموظفين قلّة وهم الكتبة الذين يسجلون الغنائم وتفاصيل الحملة الأخرى.

obeikandl.com

وكان هناك فئتان من الكتبة الفئة التي تكتب بالخط المسماري على ألواح من الغضار، والفئة التي تستخدم الحروف الأبجدية الآرامية التي تكتب على الرقوق أو على أوراق (البابيروس) المستوردة من مصر، وكان هناك أيضاً المترجمون ورجال المخابرات.

وكان لدى الآشوريين أيضاً ما يمكن أن نسميهم بشكل فضفاض ومهلهل دائرة القساوسة، وكان هؤلاء مهتمين بالشؤون الدينية ولم يكن لديهم أي علاقة بالاعتناء بالجنود وأرواحهم.

والملاك المذكور من الموظفين كان ملاكاً دينياً وكانوا يرافقون الجيش، وبالمناسبة فلم يكونوا منْشغلين بتضحية القرابين فحسب بل أيضاً في تفسير وعمل التنبؤات الفلكية عند الضرورة.

ويبدو أنه وبسبب تعاملهم مع التنبؤات الفلكية فقد لعبَ بعضهم دوراً مهماً في الحفاظ على الأخلاق العامّة.

ونحن نعلم عن كثير من الأزمات التي ساهم المتنبئون في الجيش في إعطائها قالباً من الفأل الحسنْ ساهم في تقوية معنويات المحاربين في الأوقات الصعبة، وهكذا عندما اغتيل سنحاريب عمد ابنه أسرحدون للتحرّك ضد جيش قاتلي الملك وقد تُلِيَتْ رساله من الآلهة تؤيد أسرحدون مما ساعد على تقوية قلوب جيشه وزرع الخوف عند قاتلي الملك.

ويروي آشور بانيبال أيضاً فألاً حسناً تلقاه من أحد المتنبئين في زمن قيامه بحمله ضد أخيه المتمرد وهو ملك بابل.

وقد كتب على قاعدة تمثال إله القمر مايلي: (بالنسبة إلى أولئك الذين يتآمرون ضد آشور بانيبال ويوزعون العداوات إنني أدعو عليهم بالموت البغيض، ومن خلال الخناجر الحديدية اللامعة وبالحرائق الملتهبة ومن خلال المجاعة والطاعون سوف أنهي حياتهم.)

وفي مناسبة أخرى واجه الجيش نهراً قد أحدث طوفاناً فأصابه الذّعر، وفي الحال استلم المتنبؤون والموظفون الدينيون تواصلاً إلهياً سبب لهم الطمأنينة.

(رأى الجنود نهر (أديدي) وهو هائج لذلك فقد خافوا العبور ولكن الإلهة عشتار التي كانت تعيش في إربيل أرسلت مَنَاماً إلى جنودي في الليل وقد أخبرتهم (إنني وبنفسي سوف أمشي أمام آشور بانيبال ذلك الملك الذي خلقته بيدي) وهكذا فقد تطمنت جنودي من جراء ذلك المنام وعبروا النهر بسلام.)

ويظن أنه كان بين الموظفين الذين مع الجيش من الذين يقومون بطقوس الجنائز بالنسبة للذين ماتوا في الخدمة العملية، مع أنه ليس هناك من شاهد متوفر ومن الممكن أنه كان هناك خطر أو منع الإشارة إلى عدد الأموات الآشوريين في الحرب.

والحقيقة أنه عندما تعلن قائمة الإصابات في نقش رسمي فإن أعداد الموتى المصرَّح بها تكون صغيرة بشكل لا يُصَدَّق.

مقدمات النزعة العسكرية الآشورية

لم تكن آشور دولة مهيَّأة للحرب دوماً، ففي بداية الألف الثاني كانت الأهمية العظمى للدولة مؤسسة على الجيش وكانت مدينة آشور مركزاً تجارياً لها مستعمرات تجاريّة في المناطق الأخرى بعضها يصل إلى أواسط الأناضول، والحقيقة أن العنصر التجاري مع أنه قد طغت عليه النزعة العسكرية لم يختف نهائياً كعنصر مرموق في حياة الآشوريين.

ففي زمن انهيار الإمبراطورية الآشورية وانطفائها في نهاية القرن السابع ق.م وقد انتقد هذا أحد أنبياء بني إسرائيل بقوله: (لقد ازداد عدد تجّاركم أكثر من عدد النجوم في السماء (ناحوم ١٦:٣).

ومع ذلك فقد انخفضت أهمية التجارة في القرن السابع في آشور بسبب الحروب، وهكذا كانت الحوليات الآشورية تتكلم في شؤون الحرب ولم تتكلم

في شؤون التجارة ولقد بدأ التغير بعد تسلط الميتانيين على آشور في القرن الخامس عشر.

وقد اضطُرَّ الآشوريون أن يحاربوا لاستعادة استقلالهم وبعد استعادة الاستقلال لم يعد لديهم حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها وفي الوقت نفسه يُحافظ على أمن الأراضي المزروعة بالذرة والملأى بالمراعي التي شكلت نواة المملكة الآشورية، وهكذا ظنوا أنهم قادرون على حماية أنفسهم من خطر تكرار الاحتلال والتبعيّة السابقة وذلك عن طريق التوسّع إلى المناطق التي من الممكن أن تأتي التهديدات منها.

وهكذا فقد تغلبت آشور على التهديدات الآتية من ميتاني وذلك باحتلال ميتاني نفسها، وما بقي منها.

ولكن بعد أن أصبحت ميتاني على الحياد كان هناك في طور عابدين جبال في الشمال الغربي وفي الشمال والشمال الشرقي شعب شرس جبلي مستعد دوماً لغزو السهول الآشورية، ولإيقافهم عند حدّهم اتخَذَت آشور زمام المبادرة وذلك بالقيام بغارات وحملات خلال الشرائط المحاذية للجبال، ولكن ذلك لم يكن يضمن سوى سلام هش من الممكن أن يزول لمجرد انسحاب الجيش الآشوري من تلك المنطقة.

وهذا أوجبَ بذل محاولات تضمن الأمن في تلك المناطق مما يجعلها بلاداً عملية تجارياً أو بفرض الإدارة الآشورية المباشرة، ولكن حتى لو أجبرت منطقة معينة على التهادن مع آشور إلا أنه كان وراء ملك المنطقة التهديد القديم للأمن الذي سوف يعود للظهور، الأمر الذي جعل آشور مستنفرة دوماً طلباً للاستقرار.

ولقد كان هذا العامل في التوسع تعززه وتدعمه الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت الجبال مصدراً من مصادر الخشب اللازم لبناء المدن الجديدة، ومن الممكن تجنيد المجتمعات القاطنة في وديان الجبال لجلب هذا الخشب، وقد كانت تلك المجموعات من شعوب الوديان تنتج المعادن وتربِّي الخيول، وكلا هذين الصنفين كانا غنيمة بارزة يتوق الآشوريون للحصول عليها.

وهكذا أصبحت الفوائد الاقتصادية وطلب الأمن عاملين أثَّرا على نمو حركات التوسع الآشورية بعد القرن الخامس عشر ق.م، ولقد اقترح أنه كان هناك عامل أيديولوجي، فقد كانت إرادة الإله آشور أن يوسع الملك أملاكه، فالأوصاف التي أضيفت إلى اسم آشور ظهر أنها مظهر من هذه المظاهر، فهو الذي يستطيع أن يهزم جميع العصاة، والذي يبعثر الأشرار، وإن الذي يعمل ضده هو الذي لا يحترم كلمته، وإنه الواحد الذي لا يستطيع الشر أن يهرب من شبكته.

وكل هذه الجمل كانت تأتي في سياق الإساءة إلى الإله آشور إذا عارض ذلك الجبروت العسكري الذي تتمتع به آشور، وهناك أحد الباحثين المتميزين يذهب إلى حد القول عن التوسع الآشوري الإمبراطوري بأنه نوع من اللاهوت الديني الذي يبرِّر الحرب الحقيقية، وهذا الرأي مؤسس على الادِّعاء بأن الإله آشور سوف يحكم جميع البشرية.

يظهر أن الأيديولوجية اللاهوتية سوف تحاول أن تضع التوسع الإمبراطوري الآشوري في مستوى أعلى كليًّا من تلك الفوائد السياسية والاقتصادية المجرَّدة، ولكن لا يمكننا فصل الأيديولوجية عن الاعتبارات العملية فليس هناك من شاهد أنه في بداية الألف الثاني ق.م قد قام الإله آشور بالإدعاء بحكمه للعالم بأجمع، إذ إن هذه الفكرة إنما تنبع من فكرة التوسع الآشوري.

ويبدو أن اللاهوت لم يحض على اتباع سياسة توسعيّة بل لقد حاول أن يعكس ويعطي تعبيراً دينياً لتلك السياسة أثناء تطورها.

وهكذا فإن النظام اللاهوتي بالنسبة للحرب المقدسة لم يكن القوة الدافعة المستقلة بنفسها بل نوع من التفسيرات بمصطلحات الخرافة لما كان يحدث فعلاً تحت دوافع القوى الاقتصادية والسياسية، ولكن وبما أنها قد حدثت فقد خدمت لتدعم وتحافظ على الزخم الإمبراطوري الآشوري، وهو يُمثِّل كشيء لا يعتبر مجرد جواب بشري على الظروف السريعة فحسب بل يعتبر نشاطاً قد تقرر على مستوى إلهي.

obeikandi.com

وغالباً ما يشير الملوك الآشوريين لمهمَّتهم الإلهية، وهكذا نجد أن تغلات بيلاسر حوالي ١١٠ ق.م يخاطب الآلهة ويتكلم عن نفسه بضمير الغائب ويقول:

((لقد وهبتموه قوته المصيرية لامتلاك السلطة وقررتم أن ذريته العالية المقام بين الكهنة سوف تظل إلى الأبد واقفة في المعبد)) (أي: المعبد الإلهي القومي آشور).

وبعد أكثر من أربعمائة عام يدعي أسرحدون: ((بأن الآلهة قد فوضتني بالعمل ضد أي بلاد قد أذنبت ضد الإله آشور)).

وأضاف قائلاً: ((لقد خوَّلني آشور أبو الآلهة إجلاء سكان وإعادة توطين سكان آخرين لكي تصبح حدود أراضي آشور أوسع)).

وأما الملك سرجون فيضرب مثلاً في حولياته على الاعتقاد بأن لآشور مهمَّة دينية بأن يحكم، وفي معظم الحالات فهو لا يقدم قصة حملاته بالقول والتصريح عن كل الأمكنة التي ذهب إليها بل كان يُفضل أن يعطي تبريراته لهذه الحملة هكذا:

((في السنة الخامسة بحكمي لقد أذنب (بيسيري) ملك كركميش بحق عهده للآلهة العظام واستمر في إرسال الرسائل إلى (ميتا) ملك بلاد موسكي التي تضمر العداء لآشور لذلك رفعت يدي إلى سيدي الإله آشور عندها وقع بيسيري هو وعائلته أسرى بين يدي)).

أو مرة ثانية نراه يتكلم عن الإجراء الذي اتخذه ضد الكلداني (أبال - إيدينا) وهو الملك المُغْتَصِب للسلطة في بابل وهو يظهر أن عمله كان متناسقاً مع إرادة الآلهة وهو يقول:

((ولمدة اثني عشر عاماً لقد مارس الحكم والسيطرة على بابل مدينة الإله وذلك بعكس إرادة الآلهة، هذا وإن مردوخ السيد الأعظم الذي كره الأعمال الشريرة لهذا الكلداني... وقضى أن ينزع منه صولجانه الملكي وعرشه، كل ذلك كان مرسوماً بين شفتيه، ولقد ناداني أنا سرجون الملك المتواضع ورفع رأسي

obeikandi.com

عالياً، ولكي يبعد الكلداني وهو العدو اللدود والشرير فقد عظَّم شأن أسلحتي)).

الحرب النفسية

وبالانسجام مع إحساس الآشوريين بمهمتهم الإلهيَّة فقد عمد هؤلاء إلى فرض الوعي بهذه المهمة على الشعوب الأخرى ولكي يحافظوا على الاستقرار عبر منطقة الشرق الأدنى ذلك الاستقرار المؤسس على أحقية السلطة الآشورية، فقد كان من الضروري إقناع الشعوب الأخرى بأنه من العبث مقاومة آشور.

وكان من الواجب القيام بهذا عن طريق إظهار القوة الشاملة لآشور من جهة ومن جهة أخرى عن طريق الدعاية، ولم تكن هاتان الوسيلتان منفصلتين أو غير متصلتين، هذا وإن إظهار قوة آشور بما فيه معاقبة أولئك الذين أذنبوا بالنسبة إلى آشور وأهانوها، لم تكن موجهة ضد أولئك الذين عانوا بشكل مباشر فحسب بل أيضاً ضد الذين سمعوا بتلك الإهانات عن بُعد.

وهناك مراجع متكررة في الحوليات الآشورية تشير إلى الملك الذي صبَّ جام غضبه على الأعداء ما يمكن أن نترجمه بأنه سوف يسبب الخوف الرهيب، ولقد استعملت عدة كلمات أكادية للدلالة على هذا ولكنها جميعاً تمتلك نوعاً من الفارق الدقيق فهي تشير إلى نوع من الفزع المملوء بالخوف الذي يأتي من مقابلة شيء على المستوى الإلهي.

وهكذا فإن الملك الآشوري عند تنفيذ بعض الأعمال التي تشمل أحياناً الأعمال الفظيعة الشنيعة التي توقع الذعر في الأعداء هذا الملك كان يفكِّر بنفسه أنه كان يدخل مخافة الله في أولئك الذين من الممكن أن يفكروا بمعارضة آشور، وهذا يمثل استعمال الآشوريين بشكل واعٍ للإرهاب ليس لأسباب سارية بل لأجل الحرب النفسية.

وهنا يشير سنحاريب فعلاً إلى الحقيقة التي مفادها أنه قد أزعج نفسه بإجراء تظاهرة تحديديّة ضد عيلام، ولكن الموت المفاجئ لملك عيلام بعد أقل من ثلاثة

obeikandl.com

أشهر قد نَصَّب على العرش أخاه الأصغر الذي لم يكن يملك من الذكاء والفطنة ليستنتج الاستنتاج المناسب ويستخلص العبرة المناسبة فيما يتعلق بعظمة آشور، ومن وجهة نظر سنحاريب فإنه من غير المناسب وليس من المتوقع أن تتدخل عيلام في شؤون بابل (وهي التي تدخل تحت النفوذ الآشوري) وذلك بعد إظهار آشور لقوتها.

ولقد تأكد من موقف سنحاريب لتلك الحقيقة التي مفادها أن افتقار الملك العيلامي الشاب إلى الذكاء والفطنة أشير إليه ثلاث مرات من خلال عدد من النصوص.

تظهر نتائج السياسة الآشورية الطبيعيّة المنتظرة في تلك الحادثة التي عمد فيها الملك آشور بانيبال إلى تخريب منطقة من الأراضي المانية (في شمال غربي إيران) وصب جام غضبه عليها، ونتيجة لذلك فقد اغتيل الحاكم المناوئ لآشور على أيدي رعيته واستلم الحكم الوسين ابنه الموالي لآشور.

ويذكر الملك سرجون بصراحة أن انتصاراته كان لها مظهر من مظاهر الدعاية.

وبعد قهره لقوى مملكة (أورارتو) وحلفائها بعد حملته الرئيسية عام (٧١٤ ق.م) يقول: (إن بقيّة الناس الذين فروا حفاظاً على حياتهم، قد أطلقتُ سراحهم ولكي يمجدوا النصر الذي أحرزه سيدي الإله آشور.

ولقد مات بعض هؤلاء التعساء المساكين نتيجة لتصرفاتهم في الجبال ولكن ناضل الآخرون للرجوع إلى بيوتهم حيث إن روايتهم المرعبة حول القوة التدميريّة الضارية لآشور وللجيش الآشوري أصابت المستمعين بالبكم.

ويقول سرجون: (لقد كان قوادهم من الرجال الذين كانوا يفهمون معاني المعارك والذين هربوا أمام أسلحتي وصلوا إليهم وهم مفعمون بسُمّ الموت ورووا لهم عن عظمة آشور بحيث إنهم أصبحوا وكأنهم رجال موتى.)

ومن الممكن رؤية نفس مبدأ الحرب النفسية الذي قُصد به تخفيف الحاجة إلى العمل الفعلي من الممكن رؤيتها في التوراة عند حصار أورشليم، فقد أصر

القائد الآشوري على الإعلان باللغة العبرية وذلك ليفهمه كل الناس وكل المواطنين وبعد ذلك أكد بهذه المناسبة أن ليس هناك من بلد قادر على مقاومة قوة آشور بنجاح.

وقد قال: (هل استطاع أحد الآلهة عند الأمم أن يخلص بلاده من سطوة ملك آشور؟)

لقد أظهر المظهر النفسي للحروب الآشورية عن طريق الأسلوب الذي استعمل في تصوير النقوش النافرة لمشاهد الحروب، ففي قصر آشور ناصر بعل في كالاخ كانت مشاهد الحرب هي السائدة والنقوش النافرة ولكن في القاعة التي كانت تستخدم كغرفة اجتماع المستمعين فقط.

وإنه لاستنتاج معقول أن نذكر أن سيادة المشاهد الحربية إنما كانت للتأثير على رؤية ووعي الزوّار من الحكام والسفراء لعظمة آشور وقوّتها العسكرية، أما في الغرف الأخرى في القصر فقد كانت مخصصة للموضوعات الدينيّة أو الاحتفالية.

وقد كان بعض الفظاعات التي اقترفها الآشوريون مظهراً من مظاهر الدعاية، فلم تكن مجرد أعمال عقاب ولا مجرد سيادة، إذ هناك مثال مناسب لهذه الفكرة ما وقع لسرجون الثاني ففي الجانب الآخر من جبال زاغروس على السفح المقابل لآشور في شمال غرب إيران وإلى الجنوب من بحيرة أورما كان هناك شعب (المانيان) الذين كانوا في وضع غير مريح لوقوعهم في منطقة عازلة ما بين دولة آشور ومنافستها الشمالية الرئيسية وهي مملكة أورارتو في أرمينيا.

وفي عام (٧١٦ ق.م) كان ملك المانيان موالياً لآشور، ومع ذلك فقد أقنع ملك أورارتو اثنين من الحكام المانيين بأن يقوما بالعصيان ضد الملك الموالي لآشور ثم قتلاه، وعندها بدأ سرجون بالعمل وهو يقول:

((لقد رفعت يدي لآشور ورجوته أن ينتقم من المانيين ويرجع أراضيهم إلى حدود بلاد آشور، ولهذا فقد استجاب لي الإله وأمسك بأحد الحكام المتمردين وسلخ جلده، ثم عرضه أمام المانيين)).

ولم يكن هذا مجرد عقاب وحشي، فقد كانت الدعاية تقتضي تأكيد حماية الأنشطة الموجهة ضد الحكم الآشوري والتمرد ضد الملك الموالي للآشوريين بشكل لا مجال للشك فيه، ولذا فهم بعض المانيين هذا الدرس.

هذا وقد اقتنع (أولوسونو) شقيق الملك المقتول ووريثه الذي كان قد عقد تحالفاً مع مملكة أورارتو بعد أن لمس الحماقة التي اقترفها.

ونرى سرجون يقول: ((لقد تجمع أولوسونو الماني مع جميع رجال بلاده معاً وأمسك بقدمي لذلك فقد أشفقت عليه وقد غفرت لأولوسونو ذنبه وأرجعته إلى عرشه واستلمت الجزية منه)).

ومن الواضح أن سرجون لم يكن مهتماً بإنزال عقوبة ضد أي شخص قد عارض آشور في أي وقت من الأوقات، فالجيش الآشوري كان أداة من أدوات الدولة وكانت القضية توجب الرضا إذا تمَّ إرجاع أي حاكم معادٍ إلى الحظيرة، وأن يصبح تابعاً وموالياً بمجرَّد إظهار القوة.

وحيث كان المعارضون المهزومون يتعرضون للمعاملة القاسية كما كان الحال بالنسبة للحاكم المتمرد المذكور أعلاه، لم يكن هذا قضية تعذيب انتقامي بل كان موجهاً لإقامة مثال وإعطاء إنذار بإظهار ما حدث لأولئك الذين قاوموا آشور مقاومة نشطة.

وهناك مثال مناسب لشرح هذا المبدأ يقدمه لنا تصريح لآشور بانيبال، فهو يذكر في إحدى رسائله بمناسبة عصيان بابل أن جد سنحاريب قد قدم وزنة من الفضة مكافأة على قتل الزعيم المتمرد، وقد قال إنه نفسه كان سيعطي هذا المال ذهباً مكافأة لجلب أي زعيم متمرد ضده سواء كان حياً أو ميتاً، وإن الحقيقة التي مفادها أن العرض كان لمجرد تسليم المتآمر ولو كان ميتاً، إنما يُظهر بوضوح أن غرض الملك هو إعلان مصير أي شخص متمرد وليس الابتهاج الساري بإيقاع التعذيب على المتمرد، هذا هو غرض الملك.

الجيش أثناء الحملات العسكرية

وطبقاً لما ذكره الملك سرجون فقد كان هناك موسم للحملات العسكرية وهو يصف هذا الموسم بكونه شهر الإله الأعظم والأقوى (نينوترا) ابن الإله أنليل أقوى الآلهة الذي سجله ربّ الحكمة (نينشيكو) في أحد الألواح أنه هو المسؤول عن جميع الجيوش والمعسكرات بكاملها والشهر المشار إليه هو شهر تموز، وهذا أظهر حسن التدبير لدى رب الحكمة نظراً لأن الحملة سوف تتوجه إلى الجبال حيث ترتفع درجة الحرارة في سهول منطقة ما بين النهرين إلى درجة 120° فهرنهايت، وقد كانت هذه الفترة مناسبة لجميع الجيوش والإمدادات الوطنية لأن عمليات الحصاد تكون قد انتهت في نهاية شهر أيار أو بداية حزيران مما يقدم فرصة مناسبة للإسهام في الخدمة العسكرية من قِبل الفلاحين.

ولقد كان تشكيل موسم للحملات عملاً من ابتداع الملك سرجون ولكنه لم يحافظ على مواعيده بانتظام نظراً لأن إحدى حملاته قد بدأت في شهر أيار مع أن ذلك قد حصل بشكل إجباري نظراً لحصول عصيان كان لابد من معالجته، ولكن وبالتأكيد وفي خلال القرن التاسع ق.م نجد أن الحملات كانت تبدأ في أي شهر من أشهر نيسان أو أيار أو حزيران أو تشرين الأول أو تشرين الثاني مع أن الملك المحارب آشور ناصر بعل العظيم كان يفضّل شهر أيار أو حزيران وكانت الحملات في فصل الشتاء غير مرغوب فيها وغير عادية.

وإن أحد العوامل المسببة لهذا المنع هو أن الأنشطة الزراعية في آشور كانت تبدأ في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني بحيث كانت تحدث مشكلات خطيرة إذا كانت جموع المطالبين بالخدمة العسكرية من الفلاحين كانت لا تزال تخدم في الجيش في ذلك الوقت.

أما العمليات العسكرية التي كان من الممكن للجيش النظامي القيام بها لوحده فلم تتأثر بوجود هذا الاعتبار، ولكن العامل الثاني كان الطقس الذي كان يتحكم في العمليات العسكرية في الجبال في فصل الشتاء.

ومع ذلك فإننا نسمع من النقوش الملكية التي تتحدث عن الحملات أن هذه كانت مستمرة في شهر كانون الثاني وشباط، مع أن تلك التعليقات التي تتحدث عن الطقس المعاكس كانت تذكر أن هذه التواريخ تعتبر من الأمور الشاذة.

القواعد العسكرية والتحذيرات اللوجستية

يحتاج الجيش المرابط إلى قواعد دائمة، التي كانت تُؤَمَّن في العواصم المتتالية والتي نسمع عن وجود مجمّع يدعى (إيكال مشارتي) وهو يعني حرفياً قصر المكان الذي يتجمع فيه الجيش (أي: الثكنات).

وكانت هذه الثكنات عبارة عن أبنية ذات باحات واسعة تستخدم لعدة أغراض، ولكن مع تزايد واجبات الدولة العسكرية أصبحت هذه الثكنات صغيرة فلا تستطيع تلبية الأغراض المنوطة بها.

وقد تحدث عدة ملوك بصراحة عن هذا الأمر إذ يخبرنا أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩) أن (الإيكال مشارتي) في نينوى الذي أقامه الملوك الذين سبقوني وهم أجدادي وذلك لاستيعاب ترتيبات المعسكر وللعناية بالخيول والبغال والعربات ومعدات القتال والغنائم التي تُسْتخلص من العدو...

ذلك المكان قد أصبح صغيراً جداً فلا يتسع لتدريب الخيول وتمارين العربات.

وتشير بعض النصوص الأخرى أن الأسلحة والتمرينات العسكرية كانت تخزن في (الإيكال مشارتي) بحيث أصبحت هذه تؤلف ترسانة أكثر من كونها ثكنة، وكان فيها هيئة من الكتبة وهم يؤلفون دائرة قسم الأدوات.

كانت الثكنات الدائمة في العاصمة تؤدي أعمالاً أخرى عدا خدمتها كقاعدة للحملات العسكرية، إذ إن وجود قوات ضاربة مستعدة لتقوية الملك ضد التهديدات أو العصيان ماعدا في حالة حدوث انقلاب يُعِدُّه قائد الجيش بذاته.

وربما كان هناك علاقة مباشرة بين الحقائق التي مفادها أن الملك شلمناصر الثالث) هو الذي أسس (الإيكال مشارتي) في كالاخ وأنه في حوالي نهاية حكمه

obeikandi.com

حدث عصيان كبير اشتركت فيه كل المدن الرئيسية ما عدا كالاخ، إلا أنه وببقاء كالاخ تحت سيطرته التامة فقد انتصر هو ووريثه الشرعي.

لم تكن العواصم المتعاقبة على طول نهر دجلة هي التي خدمت كقواعد للعمليات العسكرية إذ إننا نسمع مثلاً عن وجود جيوش آشورية عاملة ابتداء من (أربيل) إلى مدينة تدعى : (كاليزي) إلى الجنوب الغربي من أربيل وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشرق من كالاخ.

ولقد بنيت قواعد في الأراضي المستولى عليها خارج آشور وكانت غالباً عبارة عن معاقل قديمة للسكان الوطنيين وقد حطمت هذه المعاقل واستخدمت لهذا الهدف، ولكن أطلق عليها أسماء آشورية مثلاً في سجل حملاته ضد أوراثوا عام (٧١٤) يتحدث عن وجود قلعة حصينة استولى عليها في شمال غرب إيران ذات موقع استراتيجي بحيث تشرف على مقاطعتين وهو يقول:

(لقد عملت على تقوية ودعم هذه التحصينات في ذلك المعقل وجلبت لها الذرة والزيت والمعدات الحربية).

وعندما يبدأ الجيش بالزحف خارج قواعده وفي داخل الأراضي الآشورية عندها تصبح مسؤولية الحاكم تأمين المؤن المتوفرة وبالتالي ففي أراضي الممالك التابعة فإن هذا العمل يصبح واجب الحاكم المحلي.

وعند العمل خارج الأرض التابعة للدولة الآشورية فإن الجيش مسؤول عن تغذية نفسه من المؤن التي أخذت كغنائم، وربما كان هذا الاعتبار هو الذي أملى عليهم اختيار الطريق داخل أراضي العدو دون الحصول على المواد الغذائية، وكانت الذرة والتبن تحمل من قبل الجيش وكانت متوفرة كوجبات للجنود والخيول.

وكانت إحدى الفوائد السريعة للاستيلاء على إحدى المدن هو فتح باب أهراء الحبوب بحيث يستطيع الجنود أن يأكلوا حتى الشبع دون تحديد للوجبات، وكان هناك مشكلة المياه التي كانت تظهر في المناطق المأهولة بالسكان فإذا نفذت المياه كما كان يحصل في مناطق كثيرة من الشرق الأدنى فإن هذا كان

يؤثر على انضباط الجيش، ويذكر سرجون حالة قريبة من التمرد بسبب الإرهاق وقلة المياه.

ولقد صادف أسرحدون مشكلات بالنسبة للمياه أثناء غزو مصر ولم يستطع أن يسير بجيشه بأمان خلال صحراء سيناء إلا بعد أن عمدت بعض القبائل العربية إلى نجدته وذلك بجلب الماء لعساكره في قِرَبْ موضوعة على الجمال.

الجيش أثناء تنقله

عندما كانت تقتضي الضرورة كان باستطاعة الآشوريين أن يقدموا إلى الميدان القتال عدداً من الجنود يزيد على مائة ألف جندي، ويذكر سلمناصر الثالث أنه قد يعبر الفرات باتجاه الغرب وهو يقود جيشاً تعداده ٠٠٠و١٢٠ جندي، عام ٨٤٥ ق.م وهناك إشارات أخرى تتفق مع هذا الرقم، ومن وجهة عددية كان الجزء الأعظم من الجيش الآشوري العظيم يتألف من مجموعات جمعت بمعرفة الحكام المحليين.

ونجد ذكراً لعدد من العساكر جميعها تحت قيادة أحد الحكام تقدر بـ(١٥٠٠) جندي من الفرسان و(٠٠٠و٢٠) من الرماة، ولما كان هناك حوالي عشرين ولاية يستطيع هؤلاء جمع مئات الألوف من الجنود فإن هذا الرقم يصبح صحيحاً وممكناً.

وهذا يتفق مع الإصابات التي تلحق بالعدو في معركة واحدة، مثلاً المعركة التي خاضها سنحاريب في عيلام في هالولي عام ٦٩١ ق.م وقد ادعى سنحاريب أن خسائر العيلاميين كانت ١٥٠٠٠٠ قتيل ومن الممكن أن يكون هذا مبالغة يقصد بها الدعاية، ولكن إذا كنا سوف نصدِّق فإن العدد المذكور لا يمكن أن يزيد عن الحجم الممكن للجيش العيلامي مع وجود أعداد مقابلة يمكن مقارنتها مع الجيش الآخر وهو الجيش الآشوري.

obeikandl.com

وكانت المذبحة التي تلت عندما التقت الجيوش فالمعركة قد ظهرت في مناظر على ألواح النقوش النافرة مثلاً اللوحة التي تظهر أحد الطيور الكاسرة وهو يحمل أحشاء جندي مقتول.

ليس هناك سبب يجعلنا نفكر أن جميع الجيش الضارب في آشور كان يستدعى للخدمة كل عام، فقد كانت بعض الحملات (التي ربما كانت تتم خلال شهر) تجري باستخدام قوى أقل عدداً أو ربما باستخدام الجيش المرابط فقط بخاصة عندما تحدث الحملة خلال الفصول الزراعية.

ويخبرنا أسرحدون أنه وأثناء الجزء الأخير من حملته ضد أورارتو عام ٧١٤ ق.م فقد أعاد معظم جيشه إلى آشور وقام بنفسه بمتابعة عمله فوق جبال صعبة التضاريس ولم يكن معه سوى عربة حربية وألف من الجنود الخيالة.

كان ترتيب الزحف يعتمد على اعتبارات تكتيكية مثلاً الخوف من وجود كمين أو الحاجة إلى السرعة، ولقد سُجلت أخبار عدة حملات يقول فيها الملك بصراحة إنه تحرك دون إجراء احتياطات عادية، ودون استعراض الجيش أو دون تجهيز فرق النقل التي كانت تؤلف مؤخرة الجيش، وفي زمن سرجون الثاني كان الترتيب العادي للمسيرة عند عدم وجود أي اعتبارات أخرى كما يلي:

أولاً: سارت أعلام الآلهة بمرافقة موظفين دينيين وبعدها يأتي الملك راكباً عربة يصاحبه سائقو العربات والفرسان والذين يصفهم بأنهم الفرق الحربية التي تسير على الجانبين (الحقيقة أن سرجون مات في إحدى المعارك).

وتفيد الدلائل أن هؤلاء الفرسان كانوا تحت إمرة الملك مباشرة وكانوا يؤلفون الحرس الخاص للملك، ورأس الرمح للهجوم ويأتي خلف هؤلاء القسم الرئيسي من الجيش الآشوري، وأخيراً تأتي فرق النقل التي تؤلف المؤخرة.

وتسمح لنا التفاصيل التي نحصل عليها من تحركات وحدات الجيش العسكرية أن نحسب أن الجيش كان يتقدم مسافة ثلاثين ميلاً يومياً وكان هذا سهلاً جداً بالنسبة للخيالة عدا عند مصادفتهم تضاريس أرضية صعبة ولكن هذه المسيرة كانت صعبة بالنسبة للمشاة.

obeikandl.com

وعندما يدخل الجيش ميدان المعركة كانت الوحدات النظامية التي تؤلف نواة الجيوش الآشورية تظل في حالة تأهب واستنفار دائمة للدخول في المعركة، وهذا واضح مما قاله أسرحدون حول الحوادث في الزمن الذي اغتيل فيه والده سنحاريب عام ٦٨١ ق. م.

وكان أسرحدون عندها يقود جيشاً متجهاً نحو الغرب ويخبرنا أنه عندما سمع الخبر وبعد أن تلقى نبوءة مشجعة من الآلهة...

((لم أتأخر يوماً واحداً، ولم أنتظر حتى اكتمال تعبئة جيشي، ولم أهتم بوحدات المؤخرة، ولم اهتم باستلام الخيول والمعدات وتجهيزات القتال، ولم أكوم المؤن اللازمة على الطريق، ولم أخشَ من الصقيع ولا الثلج الذي يسقط في شهر شباط ولا صعوبات الشتاء)).

وعلى العكس فقد بدأ بالحركة حالاً لملاحقة قتلة الملك وقد كان هذا ممكناً لو كان لديه بين وحدات جيشه وحدات قتالية في حالة استعداد لدخول القتال فوراً.

لم تكن حملات الآشوريين كلها حملات قتال، فلقد حصل بعض الآشوريين خصوصاً بعض الملوك على متعة كبيرة عند اشتراكهم في مثل هذه الحملات العسكرية خصوصاً عند ارتقائهم التلال والجبال تلك الأعمال المنفصلة عن الاشتراك في المعارك، فالجبال إلى الشرق وإلى الشمال من آشور تتميز بمناظر خلابة وفي الصيف يكون الطقس مبهجاً جداً.

وقد سجل بعض الملوك انطباعاتهم أثناء ذلك فقد ذهل سرجون عند رؤيته مناظر جبال زغروس، ولقد اقتبسنا تعليقاته الشعرية حول هذه ولكن ابن سرجون وهو سنحاريب كان أقل شاعرية ولكنه كان يشعر بالبهجة عندما ذهب لتسلق الجبال.

وهنا نقتبس قطعة نثرية كتبها عند صعوده أحد الجبال لمطاردة بعض رجال الجبال المعادين له:

((لقد قدت المجموعة مثل ثور وحشي هائج، ومعي حراسي الخاص المُنْتَقون، وعساكر الجيش الذين لا يرحمون عند المعركة، ولقد قطعت الوديان والسهول والوهاد والمنحدرات الخطرة وأنا محمول في محفَّتين ولكن انطلقت ومشيت على قدمي لمتابعة المطاردة حتى القمم العالية وكنت مثل الغزال، وعندما تَعِبَت ركبتاي جلست على صخرة في الجبل، وعَبَبْتُ الماء البارد من قربتي لكي أطفئ ظمئي)).

المواصلات

كانت سرعة الحركة طبعاً عنصراً فعالاً في الحروب الناجحة وإن كثيراً من مناطق الشرق الأوسط خارج منطقة ما بين النهرين كثيرة العقبات التي تعيق التقدم، مثلاً الجبال الوعرة، الأراضي الصخرية أو الصحراء الواسعة، بينما هناك في السهول يجري نهر الفرات ودجلة وروافدهما المتعددة، وهي عقبات تؤخر تحركات الجيش.

وكان لدى الجيش الآشوري مواصلات بالعربات ذات العجلات وليس بالعربات فحسب بل أيضاً في مركبات تجرها أحياناً البغال وأحياناً الثيران وحتى الجنود، وكانت هذه تستعمل لنقل المؤن والتجهيزات ولقد ذكرنا سابقاً استعمال المهندسين العسكريين لشق الطرق حيث تعطل التضاريس الطبيعية تقدُّم العربات والمركبات، وفي بعض الأمكنة حتى هذه الاحتياطات لم تكن عملية.

ولكن هذا لم يكن ليوقّف تقدُّم الآشوريين، فقد كان الجيش يترك العربات ذات الدواليب خلفه لكي تجمع فيما بعد، أو عندما يعلمون أن الطريق سوف يتحسّن فقد كان الجنود يدفعون العربات والمركبات بالأيدي وبذلك يتغلبون على الصعوبات.

من الممكن أن تعيق الأنهار حركات الجيش الآشوري، لكن الجيش لم يتوقف، وحيث يكون خوض النهر غير عملي وغير ممكن فقد كان الجيش

obeikandl.com

يستعمل القوارب والأطواف المتوفرة وهي التي كانت تجلب مع الجيش لهذا الغرض.

ويذكر آشور ناصر بعل عن بناء القوارب في إحدى المدن (التي كانت دون شك تحتوي على المواد المناسبة والمعدّات المناسبة) حالما يقترب من الفُرات، وفيما يلي بضعة أسطر ذكرها لوصف الحوادث:

((إنه وبواسطة القوارب التي صنعتها وهي القوارب المصنوعة من الجلود، والتي حملتها معي على طول الطريق فقد عبرت نهر الفرات عند مدينة خريدي)).

وإن القوارب المصنوعة من الجلود تشبه الأطواف التي نسميها: الكيليك، ولم تكن هذه بدعة بالنسبة لآشور ناصر بعل نظراً لأنه في نحو(١١٠٠ ق. م) قد استعمل تغلات بلاسر الأول نفس الوسائل للوصول إلى الآراميين المزعجين الذين تواجدوا عند الجانب البعيد من نهر الفرات.

وفي أوائل القرن السابع قبل الميلاد صنع الملك سنحاريب طريقةً طموحة لاستعمال القوارب وكان هذا أثناء حربه مع عيلام (جنوب غرب إيران) لقد كان هذا مشمولاً في مجرى حروبه مع عيلام، وإذا قبلنا الفكرة التي مفادها أن صانعي القوارب النهرية من الآشوريين كانوا غير أكفاء، لذلك فقد جلب بُناة للسفن من السوريين لكي يبنوا له السفن في نينوى، وهو يقول:

((إنهم سوف يستعملون أساليب صنع السفن في بلادهم)) وهو يعني: طراز السفن في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وبعد ذلك فقد أبحرت تلك القوارب بواسطة البحارة المتفوقين إلى أسفل منطقة نهر دجلة (إلى حيث تقع بغداد الآن) ومن هناك (نظراً لأن الجزء السفلي من دجلة غير قابل للملاحة) فقد نقلت القوارب بطريقة العمل اليدوي إلى نهر الفرات وهكذا حتى الخليج الفارسي حيث استعملت لنقل الجنود والخيول استعداداً للهجوم البحري.

obeikandi.com

لم يصاحب الملك جيشه دوماً في حملاته بل كان دوماً على علم بما يجري من العمليات، ونحن نعلم ذلك من المراسلات المتعددة التي كانت تجري والتقارير كان الضباط في ميدان المعركة يرسلونها إلى الملك يعلمونه بالنشاطات التي كان الجيش يقوم بها ككل، أو أخبار الوحدات العسكرية المختلفة.

وكان الملك بدوره يرسل التعليمات إلى القواد العسكريين تشمل في بعض الحالات تعليماته حول المفاوضات مع الدول الأجنبية في المنطقة، وقد أصبح هذا الاتصال الجيد بين العاصمة والجنود الذين فيما وراء الحدود الآشورية ممكناً وذلك بسبب وجود نظام المواصلات الفعال.

وقد اشتمل نظام المواصلات الآشوري على نظام مخابرات عسكري، وقد أتَتْنا المعلومات المستفيضة حول هذا النظام من الحدود الشمالية الشرقية حيث كانت آشور تواجه مملكة (أورارتو) في أرمينيا.

ولقد زوَّدتنا الرسائل المرسلة من الضباط الآشوريين في الجبهة بكثير من المعلومات حول استخدام الجواسيس للحصول على المعلومات حول مراكز الأورارتية ونواياهم.

وهكذا نجد أن بعض الضباط يرسلون تقارير إلى الملك حول حركات الجنود الأورارتيين مع إيراد التفاصيل عن الإعداد والطرق والوجهات المقصودة.

ونجد في إحدى هذه الرسائل أن خمسة حكام أورارتيين ذكرت أسماؤهم قد جمعوا عساكرهم في مدينة معيّنة وكان من الواضح أنهم يستعدون للقيام بحملة.

وبعدها هناك إضافة لهذه الرسالة: ((وبخصوص الأمر الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة حوله يقول: ((أرسل رجال دابالو)) ولقد أرسلت رجلين، وقد رجع بعضهم وقدم لي هذه المعلومات والبعض لم يرجع بعد من أراضي العدو)).

إن هذا السياق لا يدع مجالاً للشك أن رجال دابالو كانوا كشافين أرسلوا للحصول على المعلومات، وللحصول على مثل هذه المعلومات كأسماء الحكام في أراضي العدو فإن هؤلاء العملاء ينبغي أن يكونوا قد أجروا اتصالات مع جماعات

من أهالي البلد وداخل أراضي العدو إما بالحصول على الأسرى واستجوابهم، أو عن طريق الدفع للجواسيس تلك الأمور المعروفة للجميع.

لدينا رسالة تذكر كيفية الحصول على أسرى من العدو لاستجوابهم عن أوضاع الأعداء، مع أنه وفي هذه الحالة كان بعض المتمردين البابليين يحاولون عمل ذلك لاكتشاف تمركز الجنود الآشوريين أثناء الاستجوابات الآشورية لضباط الوحدة المتمردة، واكتشفت أهدافهم وتحولت الأمور ونحن نعلم كل هذه المعلومات من تقرير الضابط الآشوري إلى آشور بانيبال.

تشير التقارير التي أرسلت إلى الملك الآشوري أن المخابرات العسكرية لم تكن مهتمة بتحركات عساكر العدو وأحوالهم فحسب، بل بالقضية التي تؤثر على معنويات العدو، وهذا له علاقة ببعض التفاصيل للرواية التوراتية حول حصار أورشليم تحت قيادة سنحاريب.

وبهذه المناسبة فإن التوراة تصف كيف أن القائد الآشوري (ربشاقي) قد قام بهجوم للتأثير على معنويات المدافعين، وأن إحدى الوخزات الكثيرة لمحاولاته كانت تحديه لاعتمادهم على مساعدة إلههم يَهْوَه.

وكانت محاولاته التي تتحدى وتهدم ثقتهم أن يَهْوَه نفسه الذي نال حزقيا مقامه العالي ومَذْبَحُه قائلاً لليهود ولأورشليم:

((إنكم سوف تعبدون أمام هذا المذبح في أورشليم)) (٢ ملوك ١٨ : ٥٢).

وهذا كان إشارة إلى بعض الإصلاحات التي قام بها الملك حزقيا بقصد إلغاء أماكن العبادة المحلية القديمة من جميع أنحاء فلسطين وتركيز العبادة في أورشليم.

ولقد ناقش بعض الباحثين في علوم التوراة قائلين: إن القائد الآشوري لم يقل ذلك لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الإصلاحات إذا كان هناك حقاً إصلاحات، ولكن لِمَ لا؟ وبالتأكيد على الأقل أن جزءاً من خطبة (ربشاقي) ينبغي أن يكون قد أتى بشكل أو بآخر من شخص ما قد سمعها.

openkanal.com

ولقد تحقق هذا دون أي مجال للشك عن طريق إجراء مقارنة مع رسالة بالخط المسماري مكتوبة إلى أحد ملوك آشور من قِبَلِ أحد القواد الذي كان يحاصر بابل قبل ثلاثة عقود من حصار أورشليم.

ويخبر هذا القائد في بابل الملك أنه خاطب السكان وحثهم على الاستسلام تماماً كما فعل (ربشاقي) فيما بعد في أورشليم.

إن السجل التوراتي من الواجب أن يكون تمثيلاً حقيقياً لنوع الاقتراب الذي قام به القواد الآشوريون في هذا الوقت، ولم يكن بإمكان أي كاتب عبري أن يخترع حججاً وهمية قريبة من تلك الحجج التي أطلقها القائد القديم خارج بابل.

وإذا كان قد تأكد جزء من خطبة (ربشاقي) فليس هناك من سبب معقول أن نشك في مصداقية ذلك الجزء المتعلق بإصلاحات حزقيا، أو ربما كان هناك كثير من عدم الرضا والسُخط في يهوذا بسبب إلغاء الأشكال المحلية من العبادة للإله يَهْوَه التي كانت تتمتع بالقدم والقداسة التي اكتسبوها من مخالطتهم للبطاركة وللنبي صموئيل، ولا شك أن (ربشاقي) الآشوري قد جعل كل هذه المعلومات حول السخط الديني المنتشر واستفاد منه بذكاء.

هذه الحادثة التوراتية تجلب لنا ظاهرة أخرى من مظاهر المخابرات العسكرية الآشورية فقد كانت الجيوش الآشورية تحتوي أشخاصاً يتكلمون اللغة العبرية بطلاقة، مما سبب الذعر لدى السلطات في أورشليم.

وكذلك فإن الحقيقة التي مفادها أن القواد الآشوريين لم يكن لديهم أي مشكلة بالنسبة للتواصل مع الأورارتيين أو الأسرى الآخرين، كل هذا يدل أن الجنرال الآشوري كان يقتني في هيئة موظفيه مترجمين مناسبين في منطقة عملياته، فقد كان بلاط ملك آشور يحتوي على كثير من المترجمين الذين يتقنون عدداً من اللغات وذلك كما يدل النص الذي اقتبسناه.

obeikandi.com

التكتيك العسكري

لقد استطاعت الجيوش الآشورية أن تدخل التنويع في تكتيكها طبقاً للمناسبات فقد كانوا يشتركون في حرب العصابات في الجبال، وفي معارك نظامية في الأراضي المفتوحة، وفي حصار أي مدينة.

ولدينا روايات آشورية عن كل هذه الأنواع من القتال، وكان أكثرها دموية تلك المعارك النظامية بين جيشين في ميدان مفتوح.

ويصف سنحاريب إحدى هذه المعارك عندما صدَّ جيشه الجيش العيلامي الغازي عن نهر دجلة عام (٦٩١ ق. م).

((لقد أتوا وكأنهم أسراب الجراد في الربيع، وكانوا يرغبون أن أشترك في معركة معهم، وقد كان الغبار الذي يخرج من تحت أقدامهم يغطي وجه السماء وكأنه العاصفة القادمة في طقسٍ باردٍ قاسٍ.

وقد رتبوا أنفسهم في نظام المعركة ضدي في (حالومي) على ضفة نهر دجلة، وقد قطعوا طريقي لمياه الشرب واستعدوا للمعركة.

(ولقد صلى سنحاريب إلى الآلهة لكسب المعركة ولبس درعه، وركب عربته الحربية وبادر إلى العمل).

وبأمر من آشور الإله السيد الأعظم اندفعت على العدو وكأني عاصفة، ولقد هزمتهم وأرجعتهم القهقرى، ولقد أثخنت جنود العدو بالرماح والسهام.

ولقد قطعت حناجر جيش هومان – أنداشا القائد الأعلى لجيوش ملك عيلام بالإضافة إلى نبلائه وبدأت خيولي المعتادة على القتال تنغمس في دمائهم المتفجرة وكأنها تخوض في نهر، وقد امتلأت دواليب عربتي الحربية بالدم والقاذورات.

وقد ملأت السهل بجثثهم وجثث محاربيهم كما يمتلئ بالأعشاب، وكان هناك عربات مع خيولهم قد ذُبح ركابها حالما وصلوا إلى ميدان القتال، وهكذا تحررت الخيول، وبدأت الخيول بالرجوع والتحرك في جميع الجهات إلى مسافات تبلغ ساعتين مزدوجتين (حتى عشرة أميال).

وبالنسبة لشيوخ الكلدانيين لقد ساد الذعر من هجومي عليهم وكأني شيطان، ولهذا فقد هجروا خيامهم وهربوا حفاظاً على حياتهم، وداسوا على جثث جنودهم وهم يهربون وفي لحظة ذعرهم من شدة خوفهم راحوا يبولون ويتغوطون في عرباتهم)).

ولقد ادعى سنحاريب أن انهزام الأعداء كان كاملاً بحيث خسروا ١٥٠٠٠٠ رجل، وإذا اعتبرنا أن هذا العدد فيه مبالغة كبيرة وقسمنا العدد على عشرة فإن الخسائر تظل جسيمة بالنسبة لمعركة دامت بضع ساعات.

كانت المعركة التي ذكرها سنحاريب قد اشترك فيها راكبو العربات والمشاة بشكل كثيف ويسجل والِده سرجون معركة كسبها عن طريق الفرسان، وقد وقعت في جبال شمال غربي إيران، فقد تراجع (روتسا) ملك أورارتو مع حليفه الرئيس لاستدراج سرجون حتى (وذلك حسب رأي سرجون) امتدت مواصلاته إلى نقطة انخفضت فيها معنويات جنوده وأصبح من الصعب عليه السيطرة على جنوده كلهم، وعند ذلك أرسل (روتسا) رسولاً (وذلك تحدياً منه لي) طلب منه أن يقترب ويشترك في القتال.

وعندها بدأ سرجون يصلي للإله آشور ولقد كان له أسبابه، وهنا نجد أن رجل التكتيك الألماني الشهير كلاوزيفتش يشير إلى ذلك في كتابه عن الحرب كما يلي:

يا لها من أراضٍ جبلية غير مواتية بالنسبة للمعركة الفاصلة، ومن المقاومة الهائلة التي تقدمها مجموعات صغيرة من الجنود في أرضٍ جبلية يصبح الرأي العام متأثراً بأن جميع الدفاعات الجبلية قوية للغاية، إن الوصول إلى ملجأ دفاعي في بلاد جبلية عند حدوث معركة فاصلة صعب جداً، لذلك فإننا ننصح أي قائد وقع في مثل هذا المأزق أن يتجنب مثل هذه المعارك بقدر الإمكان.

وبعكس (رويا) فقد أدرك سرجون الوضع التكتيكي وقد انتهز الفرصة التي سنحت له وبِغَضِّ النظر عن المشكلات بالنسبة لجنوده فقد قاد حرسه الشخصي من الخيالة، كانت هذه تحت قيادة ضابط ذكر اسمه اندفع إلى وسط

obeikandi.com

المعركة وكان موجوداً في عربة خفيفة ربما كان ذلك بسبب البروتكول وقد كسر هجوم سرجون خطط العدو واستولى على مقر القيادة ووصل إلى معسكر (روتسا) نفسه حيث عطبوا عربات (روتسا) بقذفها بالسهام وقذف الخيول بالسهام، وعندما ترك ملك أورارتو عربته الحربية وهرب ونزل عن ظهر حصان ولكن لم يكن حصاناً بل فرساً.

وهذا أثار هزء الآشوريين الذين كانوا يعتقدون أن الملك ينبغي أن يمتطي حصاناً فحلاً، وقد حدثت مذبحة عظيمة في صفوف الجيش الأورارتي وهرب الباقون بشكل فوضوي إلى الجبال.

لقد كانت الإجراءات التأديبية للجيش الآشوري في أراضي الأعداء غير منحصرة في الأعمال العسكرية فحسب، فقد كانت إحدى الأعمال التي يؤسف لها هي قطع الأشجار التي كان يشار إليها وكأنها إجراءات تأديبية.

وكذلك قطع أشجار النخيل والكروم أو غابات أو أشجار مغروسة حول الأمكنة المهجورة، وقد حدثت مناسبات ليست بالقليلة عندما خرَّب الجيش الآشوري عن عمد مناطق بكاملها، مثلاً يسَّجل سرجون بأسلوب مرتب يتكرر مراراً مع بعض تغيرات طفيفة كما يلي:

لقد هَدَمْت قرية أنياشتانيا ومعها سبع عشرة قرية حولها وسويت بها الأرض، ولقد أشعلت النار في العوارض الخشبية الطويلة في سقوف منازلهم واحترقت محاصيلهم الزراعية وتبنهم، ولقد فتحت أبواب أهرائهم المكومة بالذرة، وأمرت الجنود بأكل أكواز الذرة، وقد أرسلت الحيوانات التي كانت في المعسكر إلى مراعيهم وكأنها الجراد المنتشر، وقد نزعوا العشب الذي كانت تعتمد عليه المدينة، وقد خرِّبت جميع مُروجهم.

وفي مكان آخر يصف سرجون تخريبه لنظام الأقنية الذي كان يجلب الازدهار في إحدى المناطق.

وكان هناك شكل آخر من أشكال الحروب الآشورية وهو عملية الحصار وكانت هذه العملية في غاية التنظيم.

وكان أول مستلزمات هذا العمل هو عمليات النقل الفعالة التي تلزم لجلب آلات الحصار مثلاً منجنيقات القصف المدرَّعة ذات العجلات التي ترى صورها في اللوحات المجسمة.

أما السلالم التي تتكون من قوالب من الطين والحجر مع هياكل خشبية قد كانت تبنى لتمكّن تلك الآلات من الوقوف أمام النقاط المرتفعة من الأسوار، أما جنود الهندسة العسكرية فقد كانوا يحفرون الأنفاق لهدم أقسام من الأسوار وكان جنود المشاة يتسلقون على السلالم ويتسلقون الأسوار والأماكن الضعيفة بالنسبة للأحوال الدفاعية.

وقد كان وابل من السهام وحجارة المقاليع ينهمر فوق رؤوس المدافعين من الرماة ورماة المقاليع.

وكان هناك سلاح آخر مستعمل وهو النار، وقد استعملت طريقة ربما اتُّبعت في منطقة ما بين النهرين القديمة والتي ذُكرت في مراجع من النصوص المسمارية التي تذكر نيران القصب التي تُقوّض التحصينات وذلك بكسر حجارة السور بتسليط النار عليه وتكون الحرارة شديدة جداً، ولكن ربما كانت هذه الطريقة فعَّالة بالنسبة لأسوار هزيلة وليس لدينا أي شهادة تثبت أن الآشوريين قد استعملوا هذه الطريقة من الإجراءات.

وإن ما كانوا يفعلونه هو إشعال النار في المدينة بأكملها وكانت إحدى الوسائل لفعل ذلك هو إطلاق سهام تحمل جَمراً ملتهباً وكان المدافعون يرمون المحاصرين بالنار أيضاً وقد كان البترول الخام مُسْتعملاً لأغراض عسكرية (لا سيما وإن هناك كثيراً من النقاط التي كان يخرج منها البترول بشكل جزئي في منطقة الشرق الأدنى) وقد استعملت هذه الطريقة في أحوال خاصة نعرِّفها من قِبل المدافعين الذين كانوا يحاولون تخريب المنجنيقات والسلالم التابعة للمحاصرين الآشوريين.

وهنا نرى أسر حدون يصف ما حدث:

obeikandi.com

(بينما أتجول بشكل المنتصر في هذه المنطقة كان هناك سلم قد نصبته ضد .. في مدينة (أوبيوم) وفي هدوء الليل صبوا البترول على ذلك السلم وأشعلوا النار فيه، وبناءً على أوامر مردوخ ملك الآلهة هبت الريح الشمالية وهي النسيم العليل التابع لسيد الآلهة وحوّلت أَلْسنة اللهب التابعة لإله النار نحو مدينة أوبيوم ولم تحرق هذه النار السلالم بل أحرقت سور المدينة وحولته إلى رماد.

وبينما كانت تجري عمليات الحصار كان الجيش الآشوري يبني معسكراً محصّناً خارج المدينة يقصد منه أن ترتاح الجنود فيه.

ونحن نرى في النقوش النافرة مشاهد تظهر الخيام المجهزة بالمفروشات ونحن نرى عملية إعداد وجبات الطعام ونرى عملية سقي الخيول بالماء وعملية سياسة الخيول وقد فُسر هذا المشهد بأنه صورة جنود خارجين للاستجمام وهم لا يرتدون ملابسهم العسكرية وهم جالسون في حفلة مع النساء اللواتي كُنَّ يَتْبَعْنَ الجيش في معسكراته، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن هذه الجماعة كانت تتألف من بعض الأسرى وهم تحت الحراسة.

وبينما كانت عمليات الحصار تجري كانت حلقة من الحراس الآشوريين المنتشرين حول المدينة المحاصرة تحاول أن تمنع المدافعين من تلقِّي المؤن. وكانت النتيجة المحتومة هي أنه إذا كانت المدينة قوية جداً بحيث لا يمكن احتلالها بالقوة إلا أنها سوف تسقط بسبب المجاعة والجوع.

وكانت إحدى الصفات المروِّعة بالنسبة لقضايا الحصار هي أكل لحوم البشر الأمر الذي كانت الكتابات المسمارية تشير إليه، وكذلك في التوراة، ويصف آشور بانيبال بشكل يثير الاشمئزاز نتائج حصاره لمدينة بابل وهو يقول: لقد حل بهم الجوع وبسبب جوعهم فقد أكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم وقد مضغوا الأحزمة الجلدية.

معاملة الأسرى

بعد أن تسقط إحدى مدن الأعداء فقد كانت قضية معاملة الأسرى تختلف بالنسبة للظروف، وهنا تبرز مسألة الفظاعات التي كانت ترتكب وهذه تتطلب شيئاً من المناقشة نظراً لأن الآشوريين قد لصقت بهم أسماء وأوصاف سيئة على هذا الصعيد، ولقد عالجنا هذه الموضوع آنفاً ولكنه عرضة لتوضيحات أكثر.

وعندما يسمع المرء ما سجَّله آشور ناصر بعل بنفسه عن قائده، فليس هناك مجال للشك أنه من الممكن اتهام الآشوريين بممارسة الفظاعات وهاهو يكتب واصفاً نتائج إحدى معاركه:

((لقد قتلت ٣٠٠٠ جندي من جنودهم المقاتلين، وقد أحرقت كثيراً من الأسرى الذين أسرتهم منهم بالنار، وأبقيت الكثير منهم أحياء وقد قطعت أيادي بعضاً منهم حتى الرسغ وقطعت أنوف آخرين وآذانهم وأصابعهم، وقد سَمَلْت عيون كثير من الجنود وقد أحرقت شبابهم وشاباتهم حتى الموت.))

وعند احتلال مدينة أخرى كتب يقول:

((لقد كُومت كومة من الجثث أمام بوابة المدينة وقد سلخت جلود النبلاء من الذين تمردوا وقد نشرت جلودهم على أعمدة، وقد سُلِخَت جلود الكثيرين من أهل البلاد ونشرت جلودهم على الأسوار.))

إن مثل هذه الأخبار لا تسبب لنا أي ارتياح ومع ذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه المشاهد ضمن منظور الحروب القديمة.

لقد مارس معظم ملوك آشور ابتداء من آشور ناصر بعل فصاعداً سياسة توسُّعية ولكن المعاملة المتوحشة من النوع الذي رأيناه في المقتطفات السابقة لم تواجه في كل الأحوال بشكل من أشكال عدم التمييز بين المدن أو المناطق خصوصاً تلك التي انضمت إلى الفلك الآشوري حديثاً وتلك التي قامت بتمرُّدات سابقاً.

والحقيقة أنه في حالة أولئك الذين كانوا من الفئة الثانية أي: الذين أظهروا بعض التمردات هم الذين تعرَّضوا لمثل تلك العقوبات التي استعملت فيها تلك البربرية والعنف للسكان المغلوبين على أمرهم.

وإن الحالتين اللتين ذكرناهما آنفاً هما حادثتان متعلقتان بحالتي تمرد من أكبر التمردات التي جرت ضد الدولة الآشورية.

وقد اشتملت إحداهما تمرُّداً قام به المستوطنون الآشوريون الذين حاولوا الاستيلاء على قاعدة عسكرية مهمة على مدينة منخفضة لخزن المؤن.

أما الحادثة الأخرى فتعود إلى تمرد في مدينة تحكمها دولة آشور حكماً مباشراً وقد قُتل الحاكم الآشوري هناك وجلب رجل آرامي ونصِّب ملكاً، وكان هذا تابعاً للدولة الآرامية المعادية لآشور.

وفي أمكنة أخرى ذكرت في حوليات آشور ناصر بعل كان هنا رواية عن عملية عسكرية جرت بقصد الاحتلال وليس بقصد قمع التمرد ولذلك لا نجد في هذه العملية أي ذكر لأعمال القتل الفظيعة الجماعية، ولم يحدث سوى أخذ بعض الأسرى دون الإشارة إلى إعدامات أو تشويهات.

إن أي شخص قد غسل دماغه بروح الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا ساديين دوماً ينبغي على هذا الشخص أن يلقي نظرة على ثقافتنا التي نود أن نشرحها بالاقتباس التالي الذي أخذناه من حملة **Financial Tiner** فانتا نشال تايني وذلك من برنامج مخصص للأطفال والتلفزيون في عام ١٩٧٨م والبرنامج يقول:

(لا أحد سوف يأخذ روحه سواي سوف أسلخ الجلد عن جسمه الحي وأضعه على جسمي كأنه عباءة).

إن مثل هذه الأعمال الفظيعة كالتي حدثت في آشور لم تكن مظهراً من المظاهر السائدة بل عبارة عن أعمال تأديبية معتمدة قد أمرت بها السلطات المركزية في الحكومة الآشورية المتمثلة بالملك وليس لدينا أي إثبات عن حالة

obeikandi.com

وقعت فيها أعمال فظيعة اقترفها أفراد من الجيش الآشوري كقضية تتجلى فيها السادية المجردة.

حقاً لقد كان هناك بعض المشاهد على الألواح والنقوش النافرة بدت فيها أعمال بربرية (مثلاً سلخ الجلود) بالنسبة للأسرى، ولكن هناك دلالات بأن هذه الأعمال قد ارتكبت بحق زعماء التمردات ولكن بأمر من الملك ولم تكن أعمالاً عشوائية بربرية ارتكبها أشخاص بمفردهم بشكل اعتباطي قام بها جنود عاديون.

حقاً كان هناك بعض الدلالات عن إصرار الملك على تطبيق النظام بصرامة بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب، وهناك رسالة ملكية موجهة إلى أحد الولاة الآشوريين تتعلق بتأمين التموين لهؤلاء الأسرى ويحذر الملك هذا الموظف بقوله:

((ينبغي ألا تكون مهملاً وإلا فإنك سوف تموت)).

إن أفضل مصير عادي للأسرى عند التغلب على منطقة أو مدينة متمردة كان الترحيل أو النفي، وإن بذل العناية بهؤلاء المرحَّلين هو أمر نموذجي، مع أن أساس هذه المعاملة ربما كان لأغراض عملية أكثر منها إنسانية، فقد أصبح الأسرى جزءاً من الموارد المتاحة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت السلطات الآشورية ترغب أن يصل هؤلاء إلى الأماكن المقصودة وهم في صحة جيدة وأن يكونوا ذوي فائدة هناك.

ولقد اتخذت إجراءات إدارية حازمة لهذا الغرض، وقد سمعنا عن ترتيبات مفصلة لتغذية هؤلاء المهجرين في طريقهم إلى الأماكن التي يقصدونها، وقد اهتمت الدولة حتى بتأمين أحذية لهم وهم في طريق سيرهم.

وفي إحدى الحالات حصلت مساعدة على الزواج، ونحن نرى من ألواح النقوش النافرة أن بعض العربات كانت متوفرة لنقل النساء والأطفال أو ركوبهم على الحمير أو ظهور الخيول وهناك دلالات تشير إلى ترحيل العائلات وهذه الدلالات واردة في النصوص المسمارية التي تدل على أن عائلات بكاملها ومجتمعات كاملة أيضاً قد رحلت بشكل مجموعات.

لقد كان هدف الترحيل لا ينحصر في قضية التأديب بقدر ما هو وارد لمصلحة الإمبراطورية الآشورية ولمصلحة الأمن، فلقد استقر بعض المرحلين في المدن حيث شكلوا احتياطياً من اليد العاملة لتنفيذ مشاريع البناء فضلاً عن تأمين مصدر من مصادر الحرفيين المهرة، وقد ذهب آخرون إلى مناطق غير مأهولة وذلك لزيادة مساحة الأراضي الزراعية وزيادة المنتوجات الزراعية، وبالتالي إحراز الازدهار الاقتصادي.

زد على ذلك فقد وصل آخرون لإعادة إعمار بعض مناطق في الإمبراطورية كانت قد أخليت من السكان بسبب هجرات سابقة أو حالات من العصيان والتمرد، وهناك مثال توراتي معروف وهو قصة السامرة في فلسطين التي أصبحت خالية من السكان لدرجة أن سكنتها الأسود وكانت هذه الأسود مشكلة.

ويبدو أن بعض المهجَّرين تحت الحكم الآشوري كانوا يستقرون في بيوت جديدة، ويجدر بالذكر أن الإسرائيليين الذين سباهم الآشوريون ونقلوا من السامرة إلى منطقة نهر الخابور في شمال غرب منطقة ما بين النهرين وإلى شمال غرب إيران قد انسجموا في المنطقة تماماً نظراً لأننا لم نعد نسمع عنهم شيئاً، ولكن حدث العكس مع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وأسكنهم في بابل فقد احتفظوا بحس الانفصال بحيث رجع قسم كبير منهم إلى أورشليم.

والحقيقة أن الفرق ربما يعود إلى أن الآشوريين كانوا يتعمدون تهجير السكان إلى أماكن مشابهة للأماكن التي كانوا فيها، فقد عمد الرجل الآشوري ربشاكاخ في خطابه على تحريض أهالي أورشليم المحاصرين على الاستسلام وأخبرهم بأنه سوف ينقلهم إلى بلاد تشبه بلادهم (٢ ملوك ١٨ : ٣٢).

opekandi.com

البواعث الآشورية: الحوافز والإنجازات

لقد ترك الآشوريون انطباعات دامغة في تاريخ العالم بحيث إنه وبعد أكثر من ألفي عام لسقوطهم واختفائهم النهائي، فإنهم استطاعوا أن يثيروا أحكاماً عاطفية موجَّهة ضد نزعتهم الاستبدادية وفظاعاتهم (التي ربما كان مبالغ فيها).

كيف كان معاصروهم ينظرون إليهم؟

لقد أصدر النبي أشعياء الذي عاصر ذروة السطوة الآشورية، حكمه عليهم ولكن الإدانة التي أصدرها لم تكن بسبب وحشيتهم واستبدادهم، فهو في الحقيقة يعزو هذا ويعتبره جزءاً من المشيئة الإلهية لعقاب اليهود.

آلا يا آشور يا عصا غضبي

وعصا سخطي

لقد أرسلتك ضد أمة لا تخاف الله

وضد الشعب الذي غضبت عليه وأمرته

أن ينهب ويحصل على الغنائم

ويدوس عليهم كما يدوس على الوحل في الشوارع (أشعياء ١٠: ٥: ٦)

وبالنسبة لأشعياء فقد كان ذنب آشور مختلفاً عن مجرد الاستبداد، بل إنه التكبر وعدم الاعتراف بمصدر وينبوع القوة العظمى وهو يَهْوَه،

إن يَهْوَه سوف يعاقب ملك آشور على تكبره وتفاخره وكبريائه البغيضة لأنه يقول:

((بقوة يدي قد فعلت ذلك وبقوة حكمتي لأنني أنا مصدر الحكمة (أشعياء ١٠: ١٢: ١٣).

هذا وإن المباهاة والتكبر ما هي إلا استخلاص من عبارة عبرية وهي ثمرة عظمة القلب ((وهي تدل على اعتبار عظمة المرء نابعة من عظمة قلبه من الداخل،

وإن ما كان أشعياء يدينه هو الاعتداد بالنفس الذي كان يطغى على آشور، وهذه صفة غير مرغوب فيها في إسرائيل، وينبغي أن تكون للرب وحده.

لقد كانت الثقة بالنفس صفة من صفات ملوك آشور في الألف الأول، ومع أن هذه الثقة كانت ملاحظة بوضوح في الحوليات الملكية حيث يتباهى الملوك بحرّية بصفاتهم الشخصية، وبمنجزاتهم الوطنية لأنّها تُظهر أيضاً نواحي أخرى ولاسيما في كثير من المشاهد الحربية المرسومة على النقوش الجدارية النافرة.

ولم يكن في أي مكان تساؤل أو شك بما كان يفعله الآشوريون أو لماذا أو كيف يفعلون ذلك، ولم تكن هناك أي إشارة أو مرجع يعزو نجاح الآشوريين إلى دعم العناية الإلهية.

حَقاً إنه كان هناك شيء في القرص المجنح (الذي يمثل الإله آشور وقوى أخرى إلهية) يظهر عالياً في السماء فوق صورة الملك، ولكن ليس هناك شيء في هذا يشير بأي نقص في ثقة الملوك الآشوريين بأنفسهم وبقواهم.

والحقيقة أنه في مثل هذه المشاهد ليس هناك من دلالة أبداً على خوف الملك من الإله الذي فوقه، بل بالعكس كان الإله هو الذي يبدي الخوف من الملك، نظراً لأن جميع أعمال الإله كانت ترديداً لأعمال الملك (مثلاً تصويب القوس أو ما شابه ذلك).

لقد كان الآشوريون يعلمون أنهم كانوا على حق، وهكذا فقد اعتبروا أنه من المسلمات أن تكون القوى الإلهية العظمى دائماً داعمة ومؤيدة لمصالح الآشوريين.

هناك بعض الألواح النافرة المحتوية على مناظر طقوسية، وفي هذه المناظر يظهر الملك وكأنه قد اتصل اتصالاً مباشراً بالقوى الإلهية، ومع ذلك لم يكن هناك أي انتقاص من قيمة الملك وهو واقف أمام الإله.

مثلاً: عندما يقف آشور ناصر بعل أمام الشجرة المقدسة فإن الملك كان بعيداً جداً عن إظهار أو الاعتراف بوجود أي مسافة ما بين الآشوريين البشر وبين الإله،

بل بالعكس نرى الملك مرفوعاً إلى مستوى الإله عن طريق القوى السرية التي كان الكائنان الغيبيان يوجهانه إليها، وبالاستفادة من الشجرة المقدسة.

والحقيقة أنه وحيث نرى الملك واقفاً أمام الإله نرى أن الثقة بالنفس لا تزال موجودة، ففي الرسوم الجدارية التي تمثل الإله سرجون واقفاً أمام الإله آشور أنه الملك وليس الإله هو الواقف في الوسط، وتشير الصورة أنه ليس من واجب الملك أن يظهر الخشوع أمام الإله، بل إنه من وظيفة الإله أن يقوي ويدعم الملك.

إن نوع الموقف وهو ثقة الآشوريين المطلقة بقواهم البشرية، هذه الحالة مرتبطة بضعف سلطة الدين التقليدية المؤسسة على المواقف التي ترجع إلى الألف الثالث.

فالمواقف القديمة تقص وتقول: إن الآلهة هي التي خلقت نظام هذا العالم، وهذا كان ألزم وجود ثقل اكتسبته القوى الرجعية المحافظة، وهذا أدى إلى التأثير على أي نوع من التغيير أو التقدم.

فالآشوريون لم ينكروا تلك المعتقدات علناً، ولكن في بلاد آشور وفي الألف الأول بدأنا نلمس دلالات على نشوء وجهة نظر مختلفة أو طبخاً للأفكار القديمة كان العالم ساكناً أو بالأحرى دوري الحركة أي أنه إذا تغيرت الأشياء فإنها تتغير ضمن إطار متكرر، فالنظرة الجديدة للحياة وللعالم تتلخص أن الآلهة كان لديها مخطط في التاريخ، وأن آشور هي العامل الرئيسي في هذا المخطط.

وكان العنصر الرئيسي في هذا المخطط عاملاً دينياً سياسياً لكونه يمثل التوسع المستمر وسيطرة آشور وهي تحت الإله القومي آشور، ولكن مجرَّد الاعتقاد وإمكانية التطور داخل التاريخ كان يعني إمكانية التغيير بصورة عامة فالأشكال المنوطة بالحياة لم تعد محددة بالطرق القديمة.

وطبقاً لذلك بدأ الآشوريون يقبلون الأفكار الجديدة، وهكذا أو كما رأينا فقد بدأ الملوك الآشوريون يتبنون الأساليب المعمارية الجديدة من الخارج فقد بدؤوا يفتشون على مصادر جديدة للخشب والحجر وقد شجعوا العمليات الجديدة في صنع المعادن، وشجعوا استعمال المواد الجديدة، مثل القطن، واستخدموا الحرفيين المهرة كنحاتي العاج وبناة السفن وقد شجعوا هؤلاء على تقديم مهارات جديدة إلى

آشور تحت الحماية الملكية للفنانين للمارسة بأشكال جديدة من الفنون وذلك بالاختراع وبعدها بتطوير الألواح النافرة ووضعها أساساً للفن الروائي.

ولقد شجع الملوك الآشوريون وجلبوا الألعاب الأجنبية ونحن نعرف ذلك من ألواح اللعب العديدة التي تتميز بوجود ثقوب صغيرة وورود وذلك أثناء حكم أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩).

وقد أتت هذه اللعبة من مصر، فقد شوهدت هناك قبل قرون من جلبها إلى آشور، وكان أسرحدون أول فاتح لمصر ومن المؤكد أنه رأى اللعبة عندما كان هناك وأحبها، وكانت الألواح التي جلبت إلى آشور من أهل مصر ومن حجارة مصرية، ويقول تغلات بلاسر الأول: إنه عندما كان في الخارج أخذ بعض الفواكه النادره التي لا توجد في بلاده وزرعها في حدائق آشور وقد جلب سنحاريب نبتة القطن.

وجلب أحد الولاة تربية النحل من بلاد أجنبية وسجل هذه الحقيقة بفخر، وكل هذه البدع تظهر أن الآشوريين كانوا راغبين في النظر حولهم بعقل متفتح وأن يتبنوا أفكاراً جديدة، وأن يقبلوا عن وعي وإرادة أنه من الممكن تمتين الإطار القديم للأفكار والأعمال التي وصلت إليهم من الألف الثالث ق.م.

إن كل الأمثلة المعطاة تعود لصنع الإبداعات التي استفادت منها آشور كثيراً، ولكن اهتمام الآشوريين بالعالم حولهم تقدم إلى أبعد من ذلك.

إذ حالما توسعت آفاقهم الجغرافية فقد توسعت آفاقهم الذهنية أيضاً، وقد اهتموا بطُرق الحياة المختلفة عند بعض الشعوب التي قابلوها.

ونجد بعض المراسلين (ربما كان بابلياً في أصله العرقي بل كان آشورياً بعكس وجهة النظر الآشورية) يخبر الملك عن بعض القبائل التي صادفها أنهم كانوا يعيشون على الخبز المصنوع من نبات (الموروتو) وبذور النفير والذرة تأكله الحمير الوحشية.

وقد علَّق آشور بانيبال على إحدى القبائل الجبلية التي كانت ترسل الجزية إن الرجال هناك كانوا يقصون شعورهم كالنساء.

ولقد أعجب أسرحدون بطريقة الحياة التي يعيشها الفينيقيون الذين وصفهم بأنهم الملوك الذين يسكنون البحر وأن تحصينات أسوارهم هي البحر والأمواج هي جدرانهم الخارجية، وهم الذين يركبون السفينة وكأنها عربة وبدلاً من الخيول يستعملون المجاذيف.

ولقد رأينا من قبل الإعجاب الذي أبداه الملك أسرحدون بعملية تدريب الخيول التي كان يقوم بها بعض الشعوب في ما وراء زاغروس.

ولقد أظهر الآشوريون اهتماماً جاداً بالطبيعة أي: كلا المناظر وحياة الحيوانات البرية ولقد ذكرنا آنفاً حساسيتهم تجاه المناظر الجميلة، أما بالنسبة للحياة البرية فمع أن الملوك الآشوريين قد تلقوا قسماً كبيراً منها فقد أنشأ بعضهم حدائق الحيوان في بلادهم وفي عواصمهم وهذه ما تدعى بحدائق الصَّيد.

وفي هذا السياق كنَّا قد أشرنا إلى تغلات بيلاسر الأول ويخبرنا آشور ناصر بعل في القرن التاسع ما يلي:

(لقد اصطدت الحيوانات ومسكتها وهي أحياء، ولقد جَمَعْتُ في العاصمة كالاح قطعاناً من الثيران الوحشية والفيلة والأسود والنعام وذكور وإناث القرود، والحمر الوحشية والغزلان والدببة والنمور ومن جميع أنواع الحيوانات التي تكثر في السهول والجبال، وقد عرضتها على الشعب في بلادي).

ولكن ليس هناك من إثبات أن الحيوانات كانت طليقة في حدائق الصيد أم كانت محصورة في أقفاص، وقد أشار آشور ناصر بعل أن أشبال الأسود الصغار في أقفاص، ومن المحتمل أن بقية الحيوانات كانت تعامل بهذا الشكل، ومع ذلك فإنه من المؤكد أن الملك سنحاريب الذي حكم فيما بعد قد أنشأ حديقة من حدائق الصيد حول نينوى حيث كما يروى:

((قد نمت أجمات القصب بسرعة وبنت طيور السماء أعشاشها وولدت الخنازير البريَّة والوحوش صغارها بكمية وافرة.))

وتشير اهتمامات الآشوريين بالعالم حولهم ورغبتهم بقبول الأفكار الجديدة على وجود حماس وحيوية ذهنية توازي أو ربما تغذي حماسهم العسكري وبدعهم الإدارية، وكان لكثير مما فعلوه تحت تأثير هذه البواعث نتائج مهمة في التطورات التي حدثت بعد ذلك في الشرق الأدنى، وهكذا فقد اكتشفت مصادر جديدة من الخامات والحجارة والخشب، وانتشرت التقنيات، ولقد بدأت بعض الوسائل الجديدة في الحكم ذات الأهمية القصوى بالنسبة للشرق الأدنى فيما بعد تحت حكم الآشوريين.

مثلاً: نظام الطرق الإمبراطوري بالإضافة إلى نظام بريدي سريع لتأمين المواصلات بين حكام الولايات والملك، وينبغي أن يقال: إن بقاء تلك القِيَم التي نُقِلَت إلى جميع أنحاء العالم عن طريق الحضارة السومرية هذا البقاء مدين جداً لقوة الآشوريين العسكرية.

وابتداء من زمن الآراميين والموشكي أثناء حكم تغلات بيلاسر الأول حتى زمن السيذيين في نهاية الإمبراطورية الآشورية، كان هناك وبصورة متكررة تهديدات من هجرات بربرية جديدة إلى منطقة ما بين النهرين، حيث لم يستطع الآشوريون صد هذه الشعوب ولكن حيث استطاعت فإن هذه الشعوب وبفضل ردود الفعل الآشورية فقد جلبت هذه الشعوب المهاجرة لتقترب من عادات شعوب ما بين النهرين.

ونحن نلاحظ هذا وبصورة خاصة في حالة الميديين والفرس الذين قابلناهم لأول مرَّة وهم بشكل بدوٍ رحل في القرن التاسع ق.م.

وقد برهن هؤلاء أنهم تلاميذ أكفاء لأسيادهم الآشوريين، لدرجة أنه بعد قرن من سقوط آشور ظهرت إمبراطورية فارسية حكمت منطقة ما بين النهرين وبقية أقطار من الشرق الأدنى دون إجراء أي انقطاع في النظام المذكور أعلاه.

obeikandi.com

ولكن ربما كان قد أتى إسهام الآشوريين في التاريخ العالمي كنتيجة لواحد من الأشياء الأكثر بُغْضاً وكراهية في الفكر الحديث، وهذا هو تهجير وإجلاء الشعوب المقهورة، فقد كان عدد الناس الذين تأثَّروا بعملية التهجير كبيراً وهائلاً، ولقد قُدِّر أنه في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الإمبراطورية الفارسية بلغ هذا التهجير حوالي أربعة أو خمسة ملايين وقد كانت النتائج طويلة الأمد لهذا التهجير مؤثرة على عملية الاختلاط العِرقي فقد كانت الاعتبارات الجغرافية من جبال وأنهار وصحاري والمضافة إلى العوامل التاريخية التي عملت على تقسيم الشرق الأدنى إلى عدة دويلات منفصلة، والتي تطورت في جو من العُزلة ويرى الإنسان مثالاً ممتازاً لهذا الذي في فلسطين حيث وجدت عدة مجمعات من الفلسطينين والإسرائيلين وشعب يهوذا والمؤابيين والعموريين وشعب صيدوم وعدة شعوب قبلية بَقِيَت متميزة لوقت طويل.

ولقد كانت سياسة الآشوريين المتمثلة في التهجير هي التي عملت على كسر هذه العزلة، وقد كان الإسرائيليون مثلاً على ذلك وعندما نقل هؤلاء إلى صيدا ومنطقة نهر الخابور عندها اختفت لديهم النُصْرَة الشخصية الوطنية وقد بقوا هناك ولكنهم اندمجوا.

وفي بعض العواصم الكبرى في الدولة الآشورية نفسها كان الآشوريون العرقيون أقلية وذلك بسبب مجيء شعوب من عروق مختلفة واستقرارهم هناك ومعاملتهم كمواطنين متساوين رغم اختلاف أسلافهم وأجدادهم،ومع استمرار عملية إعادة الإسكان المفيدة فوق كامل المنطقة خلال حوالي ثلاثة قرون فقد حدثت زيادة لا بأس فيها في الاندماج والاختلاط العرقي وإضعاف النزعة العرقية الاستثنائية (باستثناء الأماكن التي حافظت على العزلة فيها عن طريق الوسائل الدينية كما حدث مع اليهود).

ولم تكن هذه عملية سريعة ولم تظهر نتائجها حالاً ولكنها مهدت الطريق لنمو الوحدة الثقافية في المنطقة بأكملها مما أثر على التاريخ التالي لمنطقة الشرق الأوسط.

فقد تأمن وجود قاعدة للتجانس الذي مهَّد لدخول الثقافة الهلينية في الشرق الأدنى بعد عهد الإسكندر الأكبر، وكانت الهيلينية بدورها عاملاً مهماً في انتشار الديانة المسيحية بسرعة عبر المنطقة، وبعد ستمائة عام انتشار الإسلام.

obeikandl.com